الحركة الاستشراقية:
استيعاب المسلمين من خلال فهم جديد للإسلام

بقلم أ./منصـــــوري
عبدالحق

مقدمـــــــة :

عندما عرف خصوم الإسلام أن هذا الدين لا ينفع التصدي له و مواجهته بـــالقوة وأن محاولة الوقوف في طريقه تكون دائما في صالحه و تزيده قوة ورسوخا ويكتسب أتباعه معها صحة ومناعة يؤثرون بها ولا يتأثرون..بعد ما رأوا ذلك كله سارعوا إلى مراجعة خططهم وصياغة ما يتناسب من مواقف جديدة و واقعية تحفظ لهم مصالحهم ولا تمنح الإسلام مجالا للنفوذ والتغلغل في الحضارة الإنسانية. فاختاروا مهادنته والتعايش معه بعضهم من داخل حصونه ممن أعلنوا عن إسلامهم و نطقت بالشـــهادتين ألسنتهم..فظلوا ينشرون السموم في أوساط المسلمين ويزرعون الفتن قصد النيل من الصف المتماسك وإضعافه وصرف أفراده عن المهام التي تزيدهم رفعة وعـــزة و قـــوة وتشغلهم بالقضايا الهامشية..وبعضهم الآخر تفرغ لدراسة الإسلام وتـــاريخ المســـلمين قصـــد الوقـــوف على أسراره وتحسس الآليات والعوامل التي اســـتطاعت أن تحرك بكل عزم وقوة أتباعه عبر العصور..والوصول، من خلال هذا الإلمـــام إلى مستوى التأثير في العنصر البشري الذي تستمد الحضارة الإسلامية منه قوتهـــا وتوجيهه الوجهة التي تخدم أهداف الحضارة الغربية المناوئة..وأحسن طريقة لاســـتيعاب هذا التيار الجارف هي العمل على عرض إسلام في ثوب جديد لا يثير

حافظـــة المسلمين وفي نفس الوقت لا يضمن غلبتهم وتفوقهم. وحتى يسهل عليهم تمريـــر قناعـــتهم وعرض الإسلام في صورته المبتدعة، لا بد لهم من إيجاد في الأمة الإســـلامية مـــن يحمل تلك التصورات الجديدة ويدافع عنها. كذلك بعدما تعلموا العلـــوم واســـتطاعوا أن يلموا بثقافة المسلمين وتاريخ حضارتهم فتحوا معاهد ، في كافـــة بلدان أوروبا في مدنها الكبرى وفي غيرها ، تختص في الدراسات الشرقية وفي كـــل ما له علاقة بالإسلام واللغة العربية وتاريخ الحضارة الإسلامية..وتخرج على أيديهـــم باحثون من أبناء الأمة الإسلامية حملوا المشعل وأصبحوا يسخرون أقلامهم لتحقـــيق مـــا تصبو إليه الحركة الاستشراقية . وفي الفقرات التالية محاولة متواضعة لعرض ومناقشة بعض العناصر التي ركزت عليها الحركة الاستشراقية بغرض تحقيق أهدافهـــا الـــتي لا تخرج في جملتها عن الإطار الذي وصفه محمد البهي بقوله:" إن الاستشـــراق كمنهج وكمحاولة فكرية لفهم الإسلام حضارة وعقيدة وتراثا كان دافعـــه الأصـــيل مـــن أجل إنكار المقومات الثقافية والروحية في ماضي هذه الأمة والتنديد و الاستخفاف بها "[1]

مقاصد استراتيجية :

يهدف المستشرقون من خلال عرض الإسلام في القالب الذي يستهويهم أساسا إلى:

1 - امتصـــاص بعضا من تعلق المسلمين العاطفي بقداسة هذا الدين و ثقل حجيته وشرعية أحكامه قصد إضعاف سلطانه على النفوس و بالتالي صرفهم عنه وذلك من خلال :

أ – اعتـــباره ديـــن مفصل على مصالح الأفراد يتجاوب مع ظروف جغرافية ثقافية واجتماعـــية اقتصـــادية معينة. إذ هو بدوره دخله التحريف والتشويه وأصبح ، في ادعاءاتهم ، التشكيك في مفهوم ثبوته ومدلول مصداقيته واردا بل ومؤسسا.

ب – الطعـــن في مـــن صنع تاريخ هذا الدين الذين اقترنت بهم الصور المشرقة التي ظهرت فيها، وفي أجمل حللها، مساهمة هذا الدين في تطوير حياة الناس وفي الارتقاء بهـــا في كل أبعادها. مثاليات تجسدت في صور حية ملموسة عاشها العنصر البشري في ظـــل شـــريعة وأخلاق وعقيدة الإسلام.. وبذلك يتم قطع الطريق أمام تطلعات الشـــاب المســـلم التي طالما كانت تتغذى من استحضار هذا الماضي الميداني الزاهر الـــذي ارتقت إليه البشرية بتطبيقها الدين الإسلامي. وهذا الطعن شمل كل الرموز الإســـلامية الـــتي ارتكـــز عليها البناء في أي مجال من مجالات الحياة .. ولم يستثن الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم نفسه حيث روجوا حول شخصه الكريم وأهل بيـــته أقـــوالا وادعاءات تجعل المسلم يستخف بمفاهيم العصمة والوحي ذات الوزن الخاص في معتقداته .

2 – حصـــر المجال الذي يمكن للإسلام أن يتواجد به في الأبعاد الخاصة والشخصية والحكم عليه بعدم الصلاحية في المجالات الحيوية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والـــتربوية –الثقافية. وبهذه الكيفية لا يكون في ذكر محاسن الدين الإسلامي وحتى في دعوة الناس إلى محاولة الاستفادة منها أي خطر ما دام الأمر يتعلق بجوانب بسيطة من الحياة. ويبررون ضرورة بقاء الإسلام خارج ميادين الحياة الأخرى :

أ – أحـــيانا برفع الشعار أن الدين أسمى و أرقى و أجل من أن نتزل به إلى المستنقع السياسي والاقتصادي الذي يسود فيه منطق المصلحة وتتعايش فيه الأهواء وكثيرا ما يخلو العنصر الأخلاقي من المعاملات المتداولة فيه.

ب – و أحـــيانا باعتبار أن الحياة حصل فيها تطور و أصبحت تعرض واقعا معقدا ومتداخلا في عناصره وبالتالي تجاوزت ما يطرحه الدين من أطر بدائية لاستيعابها .

ج – وأحـــيانا أخرى بالإقرار بغياب، في أطروحة الدين، نظم اقتصادية واجتماعية وسياســـية نســـتطيع اعتمادها للإشراف على كافة مظاهر الحياة .. وهذا الغياب يـــتحدثون عـــنه مرة كعجز و قصور ومرة من قبل هذا الدين ومرة كمنطلق من منطلقاته التي تأسس عليها .

بهذا يضمنون عدم قيام التجربة الإسلامية ، المزعجة لهم والمهددة لمصالحهم، مـــرة أخرى على أرض الواقع كبديل للأنظمة السائدة التي جلبت التعاسة والشقاوة للإنســـانية وفشلت في الارتقاء بها وتحقيق سعادتها..لأنهم يعرفون مسبقا أن دخول الإســـلام معترك الحياة في كافة جبهاته يعطي متنفسا للبشرية..إذ يكون باستطاعة أنظمـــته الشـــاملة استيعاب المشاكل المطروحة وحسمها عمليا وبطرق إنسانية غير مكلفـــة في مـــدة زمنية قياسية. في ظل مثل هذه التجربة المضمونة النتائج تنكشف عورات الأنظمة الموجودة وتبرز مظاهر عجزها واضحة ..

3 – محاصرته في بقعته الجغرافية التي يتواجد بها وعدم تسهيل عملية انتشاره خارج عالمـــه التقلـــيدي وذلك بتقديم هذا الدين لمختلف الشعوب و بمختلف الألسن في صورة تشمئز منها النفوس ولا ترغب بالفطرة السليمة أن تنتسب إليه أو تعتنقه .. حيـــث لا ترى فيه ما يساعدها على تحقيق ذاتها وتطوير إمكاناتها كما لا ترى فيه بديـــلا مفضـــلا على ما هي فيه خاصة وهي تعرف أن العالم الإسلامي برمته عالم مـــتخلف يعيش في تبعية للعالم الغربي في كل مظهر من مظاهر حياته.إنه عاجز عن إنـــتاج حتى ما يستهلك، فضلا عن إمكانية تقديمه المساهمة إلى غيره . بل قد تتشبع

مـــن خلال الإعلام الموجه بالقناعة أن التخلف القاتل الذي يعرفه العالم الإسلامي، رغم كل الخيرات التي يتوفر عليها، هو ثمرة طبيعية لتمسك أفرادها بهذا الدين.

وسائل اعتمدها المستشرقون للوصول إلى الهدف :

1 – الطعن في مصادر الإسلام الأساسية :

حتى يهيئوا نفوس المسلمين للتغيير في المواقف ولتكييف حياتهم مع المستجدات دون الـــرجوع إلى ما يمليه عليهم دينهم ودون أن يؤنبهم ضميرهم من عدم الالتزام بما يتماشـــى مـــع معتقداتهم الأصلية، فإن الحركة الاستشراقية عملت على نشر بعض الأفكـــار الـــتي تحط من مصداقية المصادر الإسلامية وترجح الاحتمال أنها بدورها مســـتها يد التحريف والتشويه . وبذلك يتحرر المسلم من حجية هذه المصادر التي تكبله وتوجه حركته و نشاطه. وقد ركز المستشرقون جهودهم بشكل خاص على المصـــدرين الرئيسيين: القرآن الكريم وسنة المصطفي صلى الله عليه وسلم . إدراكا منهم أن البناء الصحيح للمجتمع الإسلامي كان دائما يستند إليهما ويستمد منهما شـــرعيته. و بإقصاء هذين المصدرين الأساسين، اللذين يحتضنان ثوابت هذه الأمة ، يصـــبح كـــل ما له علاقة بالدين الإسلامي متغيرا .. و يسهل عندئذ على أعداءه توسيع دائرة الاجتهاد فيه إلى حد التلاعب بمقاصده . إضافة إلى العلاقة الخاصة التي تربط أفراد المجتمع ، عامتهم و خاصتهم ، بهذين المصدرين و التي تتأكد على مدار أيـــام الســـنة في أوقات الفرح و المسرة وأوقات الحزن والمأتم وفي المناسبات العامة والخاصـــة وفي الشـــدة والرخاء..فلا شك أن إسقاط القرآن الكريم و السنة النبوية الشـــريفة مـــن حياة المسلمين يمثل مكسبا كبيرا وبداية لانتعاش الأمل لدى هؤلاء الخصوم في إقصاء هذا الدين الذي ظل يهدد مصالحهم .

أ – القرآن الكريم :

ومـــن مظاهر الطعن في كتاب الله التي عُرف بها المستشرقون أو بعض ممن تأثر بهم:

1 – اعتـــبار القـــرآن كإنتاج أدبي متميز (دون الإفصاح أحيانا). له خصوصياته ويتضمن صورا إبداعية ملفتة للانتباه. وحتى كتاباتهم حول الإعجاز القرآني جاءت لتأكـــيد ذلـــك.حيث أنهم لم يعرضوه في يوم من الأيام على أنه كتاب مقدس وأنه يتضمن كلام الله . وهو موقف يختلف عن موقفهم من التوراة والإنجيل المحرفتين .

2 – ترجمة القرآن الكريم :

فقـــد نشـــطت حركة الترجمة بحيث توجد أكثر من 300 ترجمة للقرآن الكـــريم وفي 44 لغـــة أوروبية[2]. وقام المستشرقون بنقل القرآن إلى لغاتهم الأصلية حتى يتحكموا فيما ينتقل إليهم من أفكار ومعتقدات وحتى لا تتسرب إلى مجتمعاتهم تـــرجمات صحيحة لهذا القرآن. و مما يؤكد ذلك أن أول ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الأوروبية كانت باللغة اللاتينية بإيعاز وإشراف الراهب بطرس المجل Pierre Le Vulnerable في ديـــركلونيClugny بجـــنوب فرنسا وعلى يد راهب إنجليزي يسمى روبرت دو ريتينةRobert de Retina و راهب ألماني يدعى هرمان Hermann.ورغم أن هذا العمل أشرفت عليه الكنيسة بنفسها ولكن بعد إتمامه في سنة 1143م عارضته الدوائـــر المسيحية و رأوا أن هذه الترجمة رغم كل ما اجتمع فيها من تشويه للدين الإســـلامي و تحـــريف لمعاني القرآن الكريم فإنها في نظرهم تساهم في التعريف بهذا الديـــن ولا تخدم هدف الكنيسة الذي هو محاربته.لهذا السبب ظلت الترجمة المنجزة مخطوطـــة ضـــمن مخطوطات الدير حتى سنة 1543م.وظهرت في مدينة بال Bale

بسويسـرا على يد الطابع ثيودورTheodore و لم تسمح الكنيسة بطبع القرآن إلا في عهد البابا أسكندرالسابع1555 -1567.

وإن عملية الترجمة شوهت كثيرا من حقائق القرآن ومضامينه. يقول محمد رشيد رضا" إن ترجمات القرآن التي يعتمد عليها علماء الإفرنج في فهم القرآن كلها قاصـرة عـن أداء معانيه التي تؤديها عباراته العليا وأسلوبه المعجز للبشر وإنما هي تـؤدي بعض ما يفهمه المترجم له منهم إن كان يريد بيان ما يفهمه وإنه لمن الثابت عـندنا أن بعضهم تعمدوا تحريف كلمه عن مواضعه، على أنه قلما يكون فهمهم تامـا صـحيحا"[3]. إنهـم ترجموه لمحاربته لا للمساهمة في نشر أفكاره وتعاليمه . والترجمة الأسبانية بعنوان "القرآن مترجما بأمانة إلى الأسبانية ومعلقا عليه ومُدحضا طبقا للعقيدة والتعاليم المقدسة والأخلاق الكاملة للدين الكاثوليكي المقدس الرسولي الروماني"[4]، أكبر شاهد على ذلك.كما حرصوا على نشر ترجمات مضللة تنطوي عـلى الأضـاليل والأكاذيب وأعادوا نشرها وشجعوا على نقلها إلى لغات أخرى لتعمـيم[5]" الفائدة " المرجوة منها. ومما يؤكد سوء النية أن عددا لا يستهان به من الترجمات للقرآن الكريم نشرت بأسماء مستعارة وأحيانا بدون ذكر أسـماء مترجميها[6].

3 – الترويج لأفكار هدامة مثل :

أ – وجـود في القـرآن مـا ليس بقرآن على اعتبار أنها لا تشكل نموذجا عاليا في الفصاحة والبلاغة العربية.

ب – إزاحـة بعـض الآيات من مكانها التوقيفي ووضعها في موضع آخر سابقا أو لاحقا واعتبار ذلك تصحيحا يتجاوب مع الأصل.

ج – تسييس كتابة القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق وعثمان بن عفان رضي الله عنهما تجاوبا مع معطيات تلك المرحلة و تكييفا للنصوص مع الظروف الخاصة التي كانت تمر بها الأمة[7].

د – التشكيك في المعاني الواضحة. فحسب "ماكسيم رودنسن Maxime Rodinson " فإن الربا المشار إليها في القرآن الكريم ظلت مسألة غامضة و لم يعرف المسلمون مدلولها النهائي. كما أنه، دائما في نظر هذا الكاتب الفرنسي، فإن الإسلام لم يهتم بوضع حد للطبقية والفروق الاجتماعية وهو ما استنتجه خطأ[8] من قول الله تبارك وتعالى "ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن و سئلوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليما. ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان و الأقربون والذين عاقدت أيمانكم فئاتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيدا . الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ..."[9]، وقوله تعالى "واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم..."[10]، وقوله تعالى "كلا نمد هؤلاء و هؤلاء من عطاء ربك و ما كان عطاء ربك محظورا. انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة درجات و أكبر تفضيلا "[11]. بل إن هذا الكاتب ليجرؤ في بعض عروضه إلى حد الإشارة إلى كاتب القرآن الكريم[12] في أسلوب غامض بحيث لا نعرف هل كان يقصد به كاتب الوحي أو أمرا آخر أراد أن يترك الباب فيه مفتوحا للتأويلات والظنون .

ه – وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بالفاقد الوعي حين نزول الوحي عليه[13]. علما بأنه ثبت عنه صلى الله عليه وسلم ما ينافي ذلك حين قال عندما

سـأله الحارث بن هشام رضي الله عنه عن كيفية نزول الوحي عليه " أحيانا يأتيني مـثل صلصـلة الجرس وهو أشده علي فيُفصم عني (أي ينكشف أو ينجلي) وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول"[14].

و- تشـبيه الوحـي بالكشف وبألفاظ أخرى كالإلهام الحدسي والباطني والشعور الداخلي . والحقيقة التي لا مراء فيها أن ما يسمى بالكشف لا يعدو أن يكون آثارا مـن آثـار الرياضة الروحية أو ثمرة للتفكير الطويل والمتواصل . لذلك لا يمكنه أن ينشئ في نفس صاحبه يقينا كاملا . أما ما يندرج ضمن في حين تأبى الأخبار الغيبية والحقـائق الدينـية المقترنة بالوحي أن تخضع لهذه الأساليب التي طورها الإنسان واستطاع أن يحقق فيها نتائج مدهشة.

ب- السنة النبوية الشريفة

هذا المصدر بدوره كان موضوع اهتمام الحركة الاستشراقية وأظهرت هذه الأخيرة تجاهـه موقفـا مشابها لموقفها من كتاب الله وعملت ما في وسعها لإثارة الشبهات حولـه والانـتقاص من قيمته قصد إبعاده من كل ميدان حساس في حياة الإنسان عامة. ومن المسائل التي طرحوها بغية تحقيق أهدافهم غير المكشوفة :

1 - عـدم كـتابة السـنة النبوية وتدوينها إلا بعد قرنين أو ثلاث قرون من وفاة الرسـول صـلى الله عليه وسلم بحيث أنه، كما يرون، مرت على المسلمين فترة طويلة لم يكن فيها للسنة مهمة ولا قيمة[15]. وهو افتراء يتعارض مع الواقع التاريخي الـذي يؤكـد أن شيئا من هذه السنة كتب في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم نفسـه وإن لم يكـن هذا التدوين يختلف في طبيعته وفي أهدافه عن تدوين القرآن الكريم .. وهناك آثار صحيحة تدل على ذلك[16].

2 - إن عـــدد الأحاديث النبوية المقبولة، في نظرهم، قليلا لا تكفي لتكون أساسا للتشـــريع. وإن كثيرا منها يتناقض مع بعضه.. إضافة إلى أننا لا نستطيع أن نعتمد عـــلى العنعـــنة وشهادات الأفراد. فهو طريق لا يضمن المصداقية ولا يسمح سوى بترجـــيح الظـــن[17]. وبذلك لم يلتفتوا ،عمدا ، إلى تلك الجهود المضنية التي بذلها الأســـلاف وأفنوا فيها أعمارهم من أجل إظهار السنة النبوية على وجهها الأصلي وتنقيتها من كل الشوائب التي علقت بها..

3 - كـــيف تكـــون الســـنة حجة على المسلمين والله تعالى يقول: "وما فرطنا في الكـــتاب مـــن شـــيء"[18] وفي موضـــع آخر" ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شـــيء"[19], وظاهـــر الآيتين أن الكتاب قد اشتمل على كل شيء من أمور الدين وكـــل حكم من أحكامه ولا يحتاج في ذلك إلى شيء آخر كالسنة وإلا كان هذا الكـــتاب المقدس مفرطا فيه و لم يكن بيانا لكل شيء. كذلك ورد في القرآن الكريم قولـــه تعالى " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون "[20] بما يفيد أن الله تكفل بحفظ القـــرآن دون حفـــظ السنة و لو كانت هذه الأخيرة دليلا وحجة كالقرآن لتكفل بحفظهـــا. وهي شبهات الهدف منها تهميش السنة التي تربطها بالقرآن الكريم علاقة خاصـــة[21]. وهـــم يعلمون جيدا أن القرآن الكريم تضمن أصول الدين و قواعد الأحكام العامة ونص على بعضها صراحة وترك بيان بعضها الآخر لرسوله صلى الله عليـــه وســـلم . وبمـــا أنه أرسل ليبين للناس أحكام دينهم حيث يقول الله تعالى "وأنزلـــنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزل إليهم"[22] فلا بد أن يكون هذا البيان هو بيان للقرآن. أما ما وعد الله بحفظه فلا يقتصر على القرآن وحده و إنما يشمل شرع الله ودينه الذي بعث به رسوله.. وإلا فما معنى وما قيمة الحفظ الذي يتناول النص القرآني ولا يشمل مدلوله و معناه[23].

2 - إنشاء مكتبة علمية تخدم الأهداف المرسومة :

توجد موسوعات تاريخية تقوم بعرض التاريخ الإسلامي من منطلقات فكرية معادية للاتجـــاه الديـــني عموما وللمعتقد الإسلامي على وجه الخصوص.وتجدها ميسرة في المكتبات العامة ومكتبات الجامعات والمعاهد العليا بصورة تثير الدهشة. وفي سياق طابعهـــا العلمي الزائف تهدف إلى تغريب الفكر الإسلامي وتشويه مفاهيمه وإثارة الشبهات حول حقائقه . ونذكر من أبرزها:

" **دائـــرة المعـــارف الإسلامية** " التي فيها سيطرة البدع الدخيلة والخرافات حتى " لـــيظن ، كما لاحظ العلامة فريد وجدي ، أنها أصول الإسلام".ولكن لا غرابة في ذلك ، فإن أكثر كـــُتاب الدائرة ، كما يضيف، قسيس مبشرون يهمهم أن يتحفوا الإسلام لا أن ينصفوه وقليل منهم من يتصف بالشجاعة العلمية "[24].

" **قـــاموس المـــنجد** " لفرديناند توتل والذي هو بدوره حافل بالأخطاء حيث أن العلامـــة عبد الله كفوني في مجلة " دعوة الحق " المغربية نشر أكثر من عشرة فصول تضـــم أكثر من 400 خطأ علمي و تاريخي، كما صرح عبد الستار صراح في بحث في مجلة "العربي" للمنجد مائة خطأ تاريخي وجغرافي . ومما يطبع تحرير المواد المتعلقة بالإســـلام عوامـــل التعصب والحقد وفساد المنهج والبعد عن العلمية والإنصاف. ومثال على ذلك نقرأ في القاموس عن مسيلمة الكذاب أنه "من بني حنيفة في اليمامة عاصـــر محمدا وعرض عليه أن يشاركه النبوة فقتل في موقعة عقرباء " . وما دام لم يشر إلى كذب ادعاء مسيلمة فإنه ترك للقارئ احتمالا بأنها صادقة[25].

" **الموســـوعة العربية الميسرة** ". لا تحمل مطلقا وجهة نظر عربية فيما تناولته من موضوعات. بل نلاحظ سيطرة صهيونية على المواد وخاصة ما تعلق منها بفلسطين وتاريخ الأديان ..كما أنها تنكر السنة الهجرية والتاريخ الهجري في كل ما تورده من

مواد وخاصة فيما يتعلق بعصر النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين. ومن ناحية التوسع فإن هناك تمييزا واضحا ومثال على ذلك تغطيتها كلمة " المسرح " في 170 سطرا بينما لم تحظ كلمة "المسجد" سوى بـ 15 سطرا[26]. دون توضيح المعيار أو المحك المعتمد في توزيع المواضيع ضمن الموسوعة .

وعموما فإن هذه المراجع و كثيرة غيرها تخفي حقائق هامة وتبرز أخرى تافهة.. كما تسلط الضوء على أشخاص لا قيمة لهم في صناعة الأحداث والبناء الحضاري العام بينما تقوم في الوقت نفسه بالتعتيم على آخرين لهم وزن أكبر ومساهمة أوسع . و للمزيد من التفاصيل نحيل القارئ إلى كتاب "الاستشراق والمستشرقون: ما لهم و ما عليهم" لمصطفى السباعي يجد فيه تعريفا و لو مقتضبا عن أشهر المستشرقين النشطين كما يعرض فيه الكاتب عناوين أهم الكتب والمجلات التي أصدروها[27].

3 - إعداد جيل من المفكرين المسلمين يتولى نقل هذا الفهم داخل مجتمعاتهم :

حتى يسهل التأثير في العالم الإسلامي مباشرة ، لا بد من إيجاد أفراد منه يحملون هذه القناعة ويدافعون عنها بأنفسهم بعد ما تشبعوا بها . علما بأن موقعهم الطبيعي داخل المجتمع واحتكاكهم المباشر بأفراده يتيح لهم كل الفرص لنشرها والتأسيس من خلالها . وهذا كله يقتضي:

1- إلمام علمي و عملي بحضارة المسلمين و دينهم و لغاتهم يسمح للحركة الاستشراقية بمباشرة عملية إعداد عناصر من العالم الإسلامي بنفسها من خلال الكفاءات التي تتوفر عليها.

2 - إنشـــاء معاهد ومدارس تختص في الدراسات الشرقية ومنحها كل الدعم حتى تحـــتل مكانة محترمة بحيث يشعر طلاب العلم الذين يتخرجون منها بنوع من الفخر والامتـــياز. كمـــا يُنظر إليهم في الأوساط العلمية والتربوية - خاصة في مجتمعاتهم الأصـــلية الـــتي ينـــتظر مـــنهم أن يعودوا إليها للقيام بمهمة تخدم أهداف الحركة الاستشـــراقية - بـــنظرة إجلال وإعجاب.. مما يجعلهم يتمتعون بدرجة كبيرة من احـــترام الآخرين لهم . و هذا هو العامل المقصود تأكيده حتى يستطيع هؤلاء التأثير فـــيمن يتعاملون معهم من الطلبة وغيرهم من أفراد المجتمع ونقل إليهم قناعاتهم التي هي في الأصل قناعات المستشرقين[28]. وكل هذا أنجز وتحقق على أرض الواقع ..إذ ينتشـــر في العـــالم الغربي اليوم عدد كبير من المعاهد و الأقسام في جامعات مرموقة تقوم بالإشراف على طلبة عرب ومسلمين في دراسات عليا تتناول كل ما له علاقة بحـــياة المســـلمين التاريخية والثقافية والدينية.. وتخرجت من هذه المؤسسات العلمية دفعات عديدة على مدى الأربعين سنة الماضية .. وكانت في الأربعينيات عناصر من بـــني جلدتـــنا و تتكلم لغتنا قد بدأت فعلا تدعو إلى ما كان في الأصل من صميم أفكار المستشرقين. وظهر من في العالم الإسلامي من يدعو إلى :

1- فصل الدين عن الدولة واعتماد في المجتمع الإسلامي الطرح اللآئيكي.

2- التخلي عن السنة النبوية الشريفة و اعتماد القرآن وحده نظرا لأن السنة جاءت مشوهة و لا يمكن الاستفادة منها.

3- رفـــع معاني التقديس على كتاب الله لأن القرآن الذي تعبدنا الله بتلاوته كُتب في نظرهم من منظور سياسي يوافق مصالح الأمراء والخلفاء.

4 - الـــتحرر مـــن قبضة الماضي وخاصة ما تعلق منه بحياة الأشخاص ولو كانوا صـــحابة رســـول الله صلى الله عليه وسلم فهم رجال ونحن رجال، على حد تعبير بعضهم .

5- إحياء النزعات القديمة كبديل واقعي وعملي لما هو موجود ...الخ .

نذكر في آخر هذه الفقرة مثالا حيا يجسد ما قلته قبل قليل وبدون تعليق .. ففـــي عام 1360هـــ أثيرت في الأزهر ضجة حول الكاتب علي حسين عبد القادر الـــذي طعن في شخص التابعي الجليل الإمام الزهري الأزهر متأثرا في ذلك بأستاذه المستشـــرق جولد تسيهر ..في سياق هذا النقاش الحاد قال أحمد أمين لعلي حسين عبد القادر فيما نقله هذا الأخير عنه " إن الأزهر لا يقبل الآراء العلمية الحرة، فخير طـــريقة لبث ما تراه مناسبا من أقوال المستشرقين ألا تنسبها إليهم بصراحة و لكن ادفعهـــا إلى الأزهريين على أنها بحث منك ، وألبسها ثوبا رقيقا لا يزعجهم مسها، كمـــا فعلت أنا في " فجر الإسلام و ضحى الإسلام"[29]. وهذا إن دل على شيء فإنمـــا يـــدل عـــلى أن الخطة التي اعتمدها المستشرقون والقوى الغربية من ورائهم لاستيعاب المسلمين في قوالب تصورية جديدة قد نجحت ولو نسبيا.. إنهم استطاعوا أن يعـــيدوا صياغة الشخصية الإسلامية في صورة جديدة لا يضرهم التعايش معها. وأصـــبحت كتـــبهم المملوءة بالأضاليل هي التي تتصدر المكتبات .. فتؤثر سلبا في عقول الناشئة التي استطاعت بهذا النوع من الضغوط المعنوية أن تكسبهم في صفها لـــتحولهم إلى أبـــواق لهـــا يسخرون كل ما لديهم من طاقات وقدرا ت للدعاية والـــترويج لمـــا تـــبدعه عقول المستشرقين .. و لكن في ثوب محلي جذاب يستثير عواطـــف المســـلمين و يستلفت أنظارهم .. فيقدم لك في ظل " أضواء على السنة المحمديـــة"[30] صورا من الكذب و التحريف للحقائق والتلاعب بالنصوص والجهل

ـــتاريخ السنة والشتم والتحامل على كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصـــغارهم .. التي تخجل منها الفطرة السليمة . وهو في ذلك يشهر كفره بنفسه وبثقافـــته وبوجـــوده الأصيل و يخفي الإيمان بغيره وكل ما لهذا الغير من خصائص ومميزات التي لا تمت إلى حقيقته الثابتة الراسخة العميقة بصلة..ولكنها قصة الغالب والمغلوب تتكرر وتتجدد عبر تاريخ هذا الإنسان.

الخاتمـــة :

إننا لا نستطيع أن ننفي وجود بين المستشرقين من التزم الموضوعية وحرص على أن يظـــل وفيا للمنهج العلمي فيما ينقله عن الإسلام و المسلمين.. فكما يقول يوسف القرضـــاوي ، فهـــم "ليســـوا في درجـــة واحدة من حيث موقفهم من الإسلام و أمته"[31]..ولكن التيار الغالب في الحركة الاستشراقية استوعب ما كان يمكن أن يعـــود بالفـــائدة و الـــنفع على الإسلام والمسلمين، مما توصل إليه إنصاف بعض المستشـــرقين ، واســـتغله في اتجـــاه يضمن به براءة المسلمين و يؤكد غفلتهم عن المؤامرات التي تحاك ضدهم والتي تستهدف بالدرجة الأولى دينهم. إنها عداوة قديمة تغلفها عقدة تفوق الإنسان الغربي و تتغذى من أصول عقائدية راسخة وصدق الله العظيم إذ يقول " لن ترضى عنك اليهود و لا النصارى حتى تتبع ملته.

الهوامش

1 - محمد البهي " المبشرون و المستشرقان في موقفهم من الإسلام " ص.1 اقتبس العبارة محمد صالح البنداق " المستشرقون و ترجمة القرآن الكريم " منشورات دار الآفاق الجديدة : بيروت ، ط.1 ، 1980 ص. 89

2- محمد صالح البُنداق " المستشرقون و ترجمة القرآن الكريم"منشورات دار الآفاق الجديدة ،بيروت، ط.1 1980 ص.156-181

3- محمد رشيد رضا " الوعي المحمدي " الطبعة الثامنة ، المكتب افسلامي ، ص.24-25

4- وهي بدون تاريخ لصاحبها Bonigno de Murguiondo Y W gratoindo .

5- محمد صالح البُنداق : المرجع السابق ص.104

6- محمد صالح البُنداق : المرجع السابق ص.105

7- نسوا أو تناسوا قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه " أي أرض تقلني و أنى سماء تظلني إن قلت في ىية من كتاب الله برأيي أو بما لا أعلم " وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر " أيها الناس الرأي إنما كان من الرسول صلى الله عليه و سلم مصيبا . إن الله كان يريه. إنما هو منا الظن و التكلف " .

8- لا يمكن أن نعتبره مجرد خطأ بريء خاصة وما نعرفه من مواقف هذا الكاتب تجاه الدين الإسلامي عامة .

9- سورة النساء ، الآيات :32-34

10- سورة النساء ، الآية:36

11-سورة الإسراء ، الآيتان :20-21

12-Maxime Rodinson (1966) << Islam et Capitalisme >> ، اعتمدت في النص على ترجمة " برين بيرس Brian Pearce إلى اللغة الإنجليزية "Islam and Capitalism" دار الطباعة Penguin Books ، 1974 ص.14

13- و ورد في صحيح البخاري قول الرسول صلى الله عليه وسلم " ...أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس و هو أشد علي فيفصم عني (أي ينكشف أو ينجلي) وقد وعيت ما قال، و أحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول ".

14- صحيح البخاري ، المجلد الأول،دار إحياء التراث العربي ، ص.2-3

15-Maxime Rodinson << Islam and Capitalism>> ص.13

. J. Schracht (1964) << Introduction To Islamic Law>> Oxford. Clarento Press.
J. Schracht (1950) <<The Origins of Muhammden Jurisprudence>>

16- مصطفى السباعي " السنة و مكانتها في التشريع الإسلامي " المكتب الإسلامي ، بيروت ،الطبعة الثانية 1976م ،ص.58-61

17- -Maxime Rodinson << Islam and Capitalism>> ص12-13

18- سورة الأنعام ، الآية : 39

19- سورة النحل ، الآية : 89

20- سورة الحجر ، الآية : 9

21- تأتي أحيانا مؤكدة لحكم ورد في القرآن الكريم وأحيانا شارحة ومفصلة وموضحة لحكم عام من أحكامه وأحيانا أخرى منشئة لحكم سكت عنه القرآن الكريم.

22- سورة النحل ، الآية :44

23- تفاصيل أخرى حول هذه المسألة تجدونها في " السنة و مكانتها في التشريع الإسلامي "لمصطفى السباعي إلى ص.153-166

24- " أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ " تأليف جمال عبد الهادي محمد مسعود و وفاء محمد رفعت جمعة ، دار الصديقية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى1990

25- المرجع السابق

26- المرجع السابق

27- مصطفى السباعي "الاستشراق و المستشرقون: ما لهم وما عليهم " المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1979ص.28-42.

28- الملاحظ أن الجامعات ذات الشهرة العالمية مثل جامعات "**الصربون** " و" **كامبردج**" و"**أوكسفورد**" توجد بها أقسام تختضن هذا النوع من الدراسات .. تحت إشراف مستشرقين بارزين.

29- يقول مصطفى السباعي في المرجع المذكور سابقا " هذا ما سمعته من الدكتور علي حسين يومئذ نقلا عن أحمد أمين.

30- أبو ريه " أضواء على السنة المحمدية "

31- يوسف القرضاوي "أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة " دار الكتب ، 1990ص.178

قائمة المراجع باللغة العربية

1- يوسف القرضاوي " أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة " دار الكتب ، 1990

2- محمد صالح البُنداق " المستشرقون و ترجمة القرآن الكريم" منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، الطبعة الأولى 1980 .

3- محمد رشيد رضا " الوعي المحمدي" الطبعة الثامنة ، المكتب الإسلامي .

4- صحيح البخاري ، المجلد الأول ، دار إحياء التراث العربي .

5- مصطفى السباعي " السنة و مكانتها في التشريع الإسلامي " المكتب الإسلامي ، بيروت الطبعة الثانية 1976م .

6- مصطفى السباعي " الاستشراق و المستشرقون : ما لهم وما عليهم " المكتب الإسلامي ، بيروت الطبعة الثانية 1979م .

7- جمال عبد الهادي محمد مسعود و وفاء محمد رفعت جمعة " أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ " دار الصديقية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى1990 .

8- أبو ريه " أضواء على السنة المحمدية " دار المعارف بمصر، الطبعة الرابعة 1976 .

قائمة المراجع باللغة الأجنبية

1 - Maxime Rodinson" (1974)Islam and Capitalism " ترجمه إلى اللغة الإنجليزية برين بيرس

Brian Pearce ، Penguin Books دار الطباعة

2 - J.Schracht (1964) << Introduction To Islamic Law>> Oxford. Clarento Press

3 - J. Schracht (1950) <<The Origins of Muhammden Jurisprudence>>